مقدّمة

أبـا حـامد أنـت المخصـص بـالحمد وأنـت الـذي علمتنـا سَـنَنَ الرُّشْـدِ
وضعـت لنـا الإحيـاءَ يحيـي نفوسـنا وينقذُنـا مـن طاعـة المـارد المـردي
فربـع عبـادات وعاداتهـا الـتي تعاقبهـا كـالدر نظـم في العقـد
وثالثهـا في المهلكـات وأنـه لمنـج مـن الهلـك المـبرح بـالبعد
ورابعهـا في المنجيـات وإنـه ليسـرح بـالأرواح في جنـة الخلـد
وفيهـا ابتهـاج للجـوارح ظـاهر ومنهـا صـلاح للقلـوب من البعـد

أبو العباس الأقلشي
المحدث الصوفي تلميذ الإمام الغزالي

وإحيـا علـوم الديـن طالِعـه تنتفـع ببحـر علـوم المسـتنير المحصـل
أبـي حـامد الغـزال غـزل مدقـق مـن الغـزل لم يغـزل كذلـك بمغـزل
دعـي حجـة الإسـلام لا شـك أنـه لذلـك كـفء كـامل للتـأهل
له في منـامي قلـت إنك حجـة لإسـلامنا لي قـال ما شئت لي قل

الإمام الحافظ
عبد الغافر الفارسي

كتاب تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اصطفى من عباده رجالاً أكرمهم بالعلم، وشرّفهم بفهم آياته، وخصّهم برحمة منه وفضل، ليكونوا حجّة على من أعرض عن ذكر ربه، وغرق في بحر الهوى حتى لم يعد يبصر الحق ولا يسمعه، وإن سمعه فلا يفقهه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد المرسلين محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ، الذي علّمه ربّه علماً لم يبلغه أحد قبله ولن يبلغه أحد بعده، حيث أنزل عليه القرآن الكريم الذي حوى علوماً لا يحيط بها إلا رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علماً، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، فحقائق الوجود كلها موجودة فيه، ولكن ليس كل عالم قادر على أن يغوص في بحره، ويلتقط درره الثمينة إلا من كشف الله له عن ذلك وأكرمه بها، فضلاً منه ورحمة، قال تعالى مخاطباً حبيبه محمداً ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٣).

وأسرار مخلوقات الله في هذه الدنيا وما يجري فيها من أمور لا يحيط بها إلا خالقها العليم الحكيم، لذلك لا يُسأَلُ عما يفعل لأن له في كل خلق حكمة تتفق والغاية التي خُلقت من أجلها، وله في كل تدبير حكمة تتفق والغاية التي تمّ لأجلها، فالله وحده هو العليم بأسرار الوجود وما يجري فيه، ويُطلِع مَنْ يشاء من عباده على بعض هذه الأسرار بما يتفق مع الحكمة البالغة، ليكون نوراً في قلوب المؤمنين يكشف لهم طريق الحق فتطمئن به قلوبهم، فيسلموا الأمر لله ويرضوا بما قُدِّر مع وجود القناعة القلبية بأن هذا هو الحق الذي لا يتصور سواه، ولا ينبغي أن يكون ما هو خير منه، لأن علم الإنسان مهما بلغ لن يساوي شيئاً بالنسبة لعلم الله تعالى ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة:٢٥٥)، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦).

فالمؤمن العاقل إذا خطر له أن هناك حوادث أو مخلوقات في هذا الوجود ينبغي أن لا تحدث أو لا تُخلق، والأفضل وجود غيرها، علم بأن هذا الخاطر ما هو إلا من وسواس

الشيطان ليوقعه في الشك والاعتراض على الله تعالى، فيقول: من أنا حتى أعترض على الله الخالق الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علماً؟ وإلا كنتُ ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (يونس:٣٩).

وقد اعترض بعض العلماء على الإمام الغزالي على قوله في الإحياء: ليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ... الخ، في معرض ذكره لعجائب خلق الله وحكمته في ذلك. وقد ردَّ الإمام السيوطي عليهم في هذه الرسالة التي سمَّاها: «تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان» فأجاد وأبدع، بحيث لم يترك للمعترض أية حجّة إلا من كابر وعاند ولم يقبل الخضوع للحق لغرور أصابه، أو استجابة لما زيّنه الشيطان له، لأنه صادف هوى نفسه، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله أن يهديه للحق، ويشرح صدره له، إنه سميع مجيب.

وقد نقل الإمام السيوطي رحمه الله في رسالته هذه عن كثير من العلماء ما يؤيد قول الغزالي وينصره، وذلك هو الحق المبين لكل ذي بصيرة.

وأحب هنا أن أذكر كلمة لبعض العارفين هي في منتهى التوفيق والسداد تندفع بها كل شبهة قد ترد على بعض العلماء أو غيرهم مما يوسوس به الشيطان على ابن آدم ليفسد عليه إيمانه، فقال: اسم الحكيم، حاكم على أسماء الله تعالى كلها، فهو خالق يخلق ما يشاء بحكمة، قادر يفعل ما يشاء بحكمة، ورحيم يرحم من يشاء بحكمة، وغفور يغفر لمن يشاء بما تقتضيه الحكمة، وهكذا الأمر في كل أسماء الله تعالى الحسنى، ومما يجب إيضاحه هنا بأن هذا كله بالنسبة للحياة الدنيا التي خلقها الله تعالى ليبتلي الإنسان فيها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الدهر:٢) وذلك حتى يميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من الكافر. فلابدّ إذاً من انسجام الخلق مع الغاية التي خلق من أجلها، فكان وجود التفاوت في خلق الإنسان تقتضيه الحكمة ليتحقق الابتلاء، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام:١٦٥).

وهناك جانب آخر لهذا التفاوت وهو تسخير الناس بعضهم لبعض حتى تقوم الحياة على أتم وجه كما هو مشاهد ومعروف لكل إنسان، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ

رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢) وهذا التفاوت والاختلاف لا وجود له في الدار الآخرة، فأهل الجنة كلهم في نعيم مقيم لا هرم ولا موت، ولا فقر ولا مرض، ولا هم ولا غم، ولا تعب في كسب رزق ولا نصب، فكل ما تشتهيه النفس وتطلبه يأتيها دون عناء، لأنها دار تكريم وثواب من الله تعالى لعباده المؤمنين.

وكل ما خلق الله تعالى في الدنيا من حيوان ونبات وجماد له في كل نوع منها حكمة ليرينا آياته في خلقه، ولكل نوع منها وظيفة في هذه الحياة، وهي على أحسن ما يكون بالنسبة لما خلقت له، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة:٧)، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه:٥٠) أي هداه لما خلق له.

ولنا فيما يذكره علماء الحيوان والنبات من عجائب هذه المخلوقات وما فيها من فوائد ومنافع للإنسان في حياته ما يكفي للدلالة على قدرة الخالق العظيم وحكمته في خلقه، وعظم فضله على الإنسان، حيث سخر له ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٣،٤).

وختاماً أسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الموقنين الذين نوّر الله قلوبهم بنور الإيمان فعلموا أن كل ما خلق الله في هذه الدنيا وما يجري فيها من أمور لله فيها حكمة بالغة الغاية، منها هداية الإنسان إلى ربه والرجوع إليه لينال سعادة الدنيا والآخرة، فهنيئاً لمن صبر في الدنيا لحكم ربه لينال السعادة الأبدية في الدار الآخرة. والله ولي التوفيق.

تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان

تأليف الشيخ جلال الدين السيوطي
نفعنا الله به آمين

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على الكافرين

الحمد لله الذي أوجد الموجودات على أبدع مثال، وأحسن مِنوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد والصحب والآل، وبعد:

فقد نُقِل عن الإمام حجة الإسلام ولي الله، أبي حامد الغزالي رضي الله عنه أنه قال: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وقد استنكر ذلك بعض العلماء الموجودين، وادعى أن ذلك، إما مدسوس في كلام حجة الإسلام، أو زلةٌ صدرت من عالم، وأن هذا الكلام يعجز عنه استعجاز القدرة الإلهية واستقصارها، كما تقول الفلاسفة، أو وجوب الأصلح على الله كما تقول المعتزلة، وألّف كتاباً في ذلك، سمّاه تهديم الأركان من ليس في الإمكان أبدع مما كان، وذكر فيه أنه لا ريب أن الله تعالى قادر على أن يجعل الناس كلهم مؤمنين على الفطرة، وعلى أن يجعل الجبال كلها ذهباً، وعلى أن يزيل جبل قاسيون الذي حجب عن دمشق الريح الطيب من مكانه، ويبدل به أشجاراً وانهاراً، وأشياء من هذا النمط، مما لو عرض على أجهل السوقة لم يشك في صلاحية القدرة له، فضلاً عن طالب عِلم، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مثل حجة الإسلام، ولما رأيت هذا الكلام من المنكر، صادراً عن عدم الوقوف على مقصد حجة الإسلام، تعجبتُ من ذلك كلَّ العجب، وقد وقع الإلحاح عليّ في الكتابة بالرد عليه، وأنا أرى أن الأولى السكوت ولزوم البيوت، حتى شرح الله صدري لإبانة مقصد هذا الإمام بالطريق القويم، رجاء الهداية إلى الصراط المستقيم، فرقمت هذه الأحرف وسميتها: «تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان».

فأقول: أول ما يجب أن تعلم أمرين:

أحدهما: أن المجمع عليه عند أهل السنة والجماعة أن القدرة إنما تتعلق بالممكن دون المستحيل.

والثاني: أن النفي في كلام حجة الإسلام، ليس منصباً على إمكان وجود شيء غير الموجود، إنما ينصب على كونه أبدع من الموجود، فنفى حجة الإسلام كون الشيء مما يمكن وجوده أبدع مما وجد، مع قطعه بصلاحية القدرة لإيجاده، فقول المعترض إن في القدرة جعل الكافرين مؤمنين كلّهم على الفطرة.

قلنا: نُسلّم لا شك في صلاحية القدرة لذلك، كيف وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ (يونس:٩٩) لكن المنفي كون ذلك لو وقع لكان أبدع، والمدعي أن ما فعله الله تعالى من جعل الناس قسمين، مؤمنين وكفاراً، أبْدَع من حيث الحكمة، وكذلك انقسامهم قسمين، إلى طائعين وعصاة أبدع من جعلهم كلهم طائعين.

وهذا سر القدر، والذي سأل الله عنه جماعةٌ من الأنبياء، فنهاهم عن سؤاله كما ورد في الحديث[(١)]، وورد: «القَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلا تَكَلَّفُوهُ»[(٢)].

وقد لحظ فيه من حيث الحكمة أنه لولا الكفر لم يعرف مقدار الإيمان، ولولا المعصية لم يعرف مقدار الطاعة، ولولا النار لم يعرف مقدار الجنة.

فهذا بعض أسرار كونه أبدع، وكذا نقول إنه سبحانه قادر على جعل الناس كلهم أصحّاء، وأغنياء، وذوي حُسن وجمال، لكن جَعْلَهم متفاوتين أبدع، كما أجاب الله به آدم حين سأله عن ذلك.

أخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل في «زوائد المسند» لأبيه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه في «تفاسيرهم»، واللالكائي في «السنة»، وابن مندة في كتاب «الرد على الجهمية» بسند صحيح عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الآية (الأعراف:١٧٢) قال: جمعهم فجعلهم أزواجاً ثم صورهم فاستنطقهم، وآدم ينظر إليهم، فرأى الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب، لو سويّت بين

---

(١) روى الطبراني عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «وإذا ذكر القدر فأمسكوا»، قال الهيثمي: فيه مسهر بن عبدالملك وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (القدر، ٧:٢٠٢). وقال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن، «الفتح» (القدر، ١٤:٢٧٧).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦:١٨٢) من حديث ابن عمر بلفظ: «لا تكلموا في القدر فإنه سر فلا تفشوا لله سره». وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو نعيم وابن عدي، وهو ضعيف، «حقيقة التوحيد»، وورد بلفظ: «القدر سر الله فلا تكلفوه» عن ابن عباس موقوفاً، راجع الحاشية رقم/٢/ صفحة /٤٩٦/.

عبادك، فقال: «إنّي أحببتُ أنْ أُشكَر»[١].

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مندة في كتاب «الرد على الجهمية»، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى لَمّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهرَهُ فَخرَجتْ مِنهُ كُلُّ نَسمَةٍ هُو خَالِقُها إلى يَوم القِيَامَةِ، ثُمَّ عَرضَهُم عَلى آدَمَ، فَإذا فِيهِمُ الأَجْذَمُ، والأَبرَصُ، والأعمَى، وأَنواعُ الأَسقَام، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ لِمَ فَعلتَ هَذا؟ أَتَدرِيني، فَقَالَ: كَي تُشْكَر نِعْمَتِي».

فهذا نص من الله على الحكمة في خلق الناس متفاوتين في الكمال والنقص، حتى أن جعل أنواع البلاء متفاوتة إرادة الشُّكر، فلا ترى ذا بلاء إلا وهو يرى من هو أشد منه بلاء، ولا ذا حال سيئ، إلا وهو يرى من هو أسوأ حالاً منه، ولو مِنْ نوع آخر، فترى مثلاً الفقير الذي لا يجد قوته ويبيت الليالي طاوياً يرى من دنف[٢] ملازم الوسادة وهو كثير المال، فيشكر الله على العافية، وكذلك الدَّنفُ يرى هذا الفقير وهو يتمنى القوت فلا يجده، فيشكر الله أنْ رزقه الغنى مع سقمه و لم يجعله يتكفف الناس، وترى المَلِك ينظر إلى ما حوله من النِعم ونفوذ الأمر، فيشكر الله أن جعله آمِراً لا مأموراً، ومالكاً لا مملوكاً، وترى آحاد الرعية ينظر إلى ما يقاسيه الملك من أنكاد الدنيا وهمومها، وخروج الخوارج عليه، وانتشار المفسدين والقطّاع، وخوفه على نفسه ممن يغتاله أو يسلب منه ملكه، ويقصده بأنواع المكايد، ثم ما يتبع ذلك من الحساب يوم القيامة على كل فرد من رعاياه، وهل قام فيهم بما أمره الله من العدل فيهم، وتخليص مظلومهم من ظالمهم، وإنفاذاً لأمر الله فيهم، وإيصال حقوقهم إليهم، وعلى كل ذرة من مال قبضها، أو صرفها، هل أخذها كما أمر الله؟ وصرفها فيما أمر الله؟ فيحمد الله ذلك المسكين أنْ لم يجعله ملكاً.

فحينئذ لا نرى من الناس إلا شاكراً، كلٌ بحسب حاله. فانظر إلى هذه الحكمة البديعة في جعل الخلق مع تباين أحوالهم متفاوتين في الحال الواحد، مقولين بالتشكيك لا بالتواطؤ، قدروا الفقر متفاوتون ليرى كل دونه، وكذلك ذووا البلاء إلى غير ذلك، وإرادة الشكر من المقاصد المعتبرة بدليل قوله ﷺ[٣]: «مَا أَحدٌ أَحبّ إليهِ المدحُ مِنَ الله، مِنْ أجلِ ذَلكَ

(١) قال الهيثمي: رواه عبدالله بن أحمد عن شيخه محمد بن يعقوب الربالي، وهو مستور، وبقية رجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» (التفسير، سورة الأعراف ٧:٢٥). ورواه الحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي. «المستدرك» (التفسير ٢:٣٢٤).

(٢) الدَّنف: المرض الملازم. «قاموس المحيط».

(٣) قلت: رواه البخاري من حديث ابن مسعود «التفسير» سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾، ومسلم «التوبة» تحريم الفواحش.

مَدَحَ نَفسَـهُ»، أخرجه الطبراني عن ابن مسعود.

ووجه آخر في خلق المكروهات وما فيها من الفوائد الدنيوية والأخروية، وقد ألف الشيخ عز الدين بن عبدالسلام كتاباً في فوائد المصائب، ذكر فيه سبع عشرة فائدة، وقد قال: خيرة الله لعبده فيما يكره أكثر من خيرته فيما يحب، وفي الحديث: «عَجِبتُ للمُؤمِنِ وقَضَاءُ الله لَهُ خَيرٌ، إنْ أصَابَهُ خَيرٌ أو شَرٌّ»[1]. وقال ﷺ لمن قال له أوصني: «لا تَتَّهِمِ الله عَلى نَفسِكَ».

فهذه أنواع من أنواع الموجودات تبين فيه وجه الأبدعية بالنسبة إلى ضده. فقس على ذلك سائر الأنواع، وقد يكون الشيء أبدع في وقت وخلافه أبدع في وقت آخر، ومن ثم يوجد الله الرخاء في وقت والغلاء في وقت آخر، وفي مكان ومكان، وكذلك الحياة والموت، واليسر والعسر، والأمن والخوف، والصحة والسقم، وذلك لعلم الله بحكمته البالغة أن الأبدع في هذا الوقت إيجاد أحد الضدين إلى وقت كذا، فإذا جاء وقت كذا فالأبدع إيجاد هذه، فيوجد على حسب حكمته. ومن قدح في شيء من هذا فقد قدح في الحكمة، وعارض حكمة الحكيم برأي من عنده، زعم بجهله أنه أهم مما اقتضته الحكمة، ولهذا قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه «الحكيم»: ما ترك من الجهل من أراد أن يوجد في وقت غير الذي أوجده الله فيه، ويوشح ذلك قصة المنسوخ من الشرائع والأحكام، فإن الله علم بحكمته البالغة أن الأبدع شرع هذا الحكم في هذا الوقت، فشرع إلى وقت كذا، فإن جاء ذلك الوقت فالأبدع شرع خلافه، وقد نص أرباب البيان في تقرير وجه إعجاز القرآن على ما يشبه ذلك، فقال: لا شك فيه أن الباري تعالى عالم بجميع أصناف الكلام فاختار لكتابه أفصحها، وأجلّها وجهاً، فأنزلها عليه، فلا يمكن أفصح منه، وكذلك نقول في الموجودات، علم الله في كل موجود جميع الوجوه الممكن إيجاده عليها، فاختار أبدعها وجهاً فأوجده عليه، مع صلاحية القدرة لإيجاده على أوجه كثيرة غير ذلك، إلا أنها ليست بأبدع، فالأبدع الوجه الذي أوجده الله عليه.

وتقول في خلق الإنسان إنه يمكن بروزه على وجه غير الصورة التي أبرزه الله عليها،

---

(١) روى أحمد في «المسند» (٤:٣٢٢) ومسلم، كلاهما من حديث صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (الزهد، المؤمن أمره كله خير). وروى أحمد (١:١٧٣) نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» (القدر، ٧:٢٠٩) وسيأتي نحوه من حديث أنس حاشية رقم /٢/ صفحة /٥٠١/.

من جعل رأسه أسفلها[١]، أو في ظهره مثلاً، أو كونه بعين واحدة، أو يديه أو يمينه خلف ظهره، أو كون فمه في رأسه، أو في بطنه، إلى غير ذلك من الوجوه الممكنة التي لا شك في صلاحية القدرة لها، لكنها ليست بأبدع، والأبدع هذه الصورة الموجودة لما فيها من المحاسن والحكم، وشاهده قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤)، وهذا نص قاطع في أن الصورة التي خلق عليها الإنسان لا أبدع منها. وكذلك نقول في سائر الحيوانات إنها موجودة على الصورة التي لا أبدع منها، وشاهده قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة:٧).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: أحسن كل شيء خَلَقَهُ، فجعل الكلب في خَلْقِهِ حسناً. وأخرج من وجه آخر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أما أن أُسْتَ القردة ليست بحسنة ولكنه أحسن خَلْقَها.

وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩) قال: خلق الله لكل شيء ما يشاكله من خَلقِه، وما يصلحه من رزقه، فخلق البعير خلقاً لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب، وكذلك كل شيء من خلقه، وخلق لدواب البر وطيرها من الرزق ما يصلحها في البر، وخلق لدواب البحر وطيرها من الرزق ما يصلحها في البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت:١٠) قال: قدر في كل أرض شيئاً لا يصلح في غيرها.

وأخرج سعيد بن منصور بلفظ: لا يصلح السابوري إلا بسابور، ولا يثاب اليمني إلا باليمن. وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس بلفظ: جعل في هذه ما ليس في هذه، وفي هذه ما ليس في هذه.

وقول المعترض: في قدرة الله أن يجعل الجبال ذهباً.

قلنا: مُسلَّم ذلك وأكثر منه، كيف وقد عرض على نبيه ﷺ ذلك[٣]، لكن الأبدع

(١) هكذا في الأصل، ولعله أسفله.

(٢) قال الهيثمي: فيه الضحاك ضعفه جماعة ووثقه ابن حبان وقال: لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله وثقوا «مجمع الزوائد» (القدر، حف القلم، ٧: ١٩٠).

(٣) روى الترمذي من حديث أبي أمامة: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب،

ما صنعه الله تعالى، ولو كانت الجبال كلها ذهباً لتعطل الوجود، وترك الناس الزراعة وسائر وجوه المعيشة، فيؤدي إلى هلاكهم. وفي هذا السر في انقسام الناس إلى زاهد وحريص، ووضع الأمل والرغبة في الدنيا، ولو كان الناس كلهم زهاداً ولا آمال لهم، لتركوا المعايش والمتاجر والأسفار، وجلب الأمتعة من البلاد القاصية، فلم ينتظم للناس معيشة، فكان صنع الله أبدع ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٨٨)، وأيضاً فلو كانت الجبال كلها ذهباً لاقتتلوا عن آخرهم، كما يقع لهم حين يحسر الفرات عن كنز من ذهب، كما في الحديث[1]. ولما كان ذلك الأمر في ذلك الوقت أبدع لاقتراب الساعة أوجده الله حينئذ.

وقول المعترض: إن في قدرة الله إزالة جبل قاسيون إلى آخره مُسلّم، وذلك كائن لا محالة قرب الساعة، قال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (الطور:١٠) لكن إثباته الآن أبدع من إزالته، وإن كان حاجباً الريح الطيب عن دمشق، فلعلَّ الباري سبحانه وتعالى علم بحكمته أن الأصلح بهذه البلدة حجب الريح الطيب عنها ولا يستنكر ذلك، فرب أمزجة لا يصلح لها شم الريح الطيب. وقد قال الأطباء: إن الأمكنة الردية تصح في الأزمنة الدنية، فتصح عند فساد الهواء، وتفسد عند طيب الهواء، فقد تكون دمشق في علم الله كذلك، فعلم أن الأصح لها حجب الريح الطيب عنها، وقد تكون الحكمة في ذلك راجعة إلى الإرساء، لأن الجبال إنما خلقت لإرساء الأرض حين مادت، فوضع جبل قاسيون في مستقره بحكمة، فلعله لو أزيل عنه أخلَّ بحكمة الإرساء، فكان الأبدع وضعه هنا، وإن أدى إلى ضرر آخر من جنس[2] الريح، لأن مراعاة الأشد ضرراً مقدمة على الأخف، والأحسن يترك لما هو أحسن منه، والضرر يرتكب لدفع ما هو أشد منه ضرراً.

وقول المعترض: إن الله تعالى لا يجب عليه إلا فعل الأصح.

قلنا مُسلّم، ومن ادعى أنه واجب، وإنما نقول إنه تعالى فعل الأبدع في مصنوعاته فضلاً

ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» وقال: حسن رقم (٢٣٤٨). ورواه أحمد، وقال المُناوي قال العراقي فيه ثلاثة ضعفاء: علي بن زيد، والقاسم أبي عبدالرحمن، وعبيدالله بن زحر. «فيض القدير» (٥٤١٧).

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة: «يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً» «الفتن، خروج النار»، ومسلم وزاد في آخره: «يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ... الحديث» (الفتن، لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات).

(٢) هكذا في الأصل والصواب حبس.

منه ومنّاً لا وجوباً، تعالى الله عن ذلك، كما يقطع بأنه يدخل أهل طاعته الجنة فضلاً منه لا وجوباً عليه، ولو شاء لأدخلهم النار، لكنه لا يفعل ذلك كرماً منه. والحاصل أنّا نقول إن كل موجود على وجه يمكن إيجاده على عدة وجوه أخرى، وإن القدرة صالحة لذلك، غير أن الوجه الذي أوجده الله عليه أبدَعُها لعلم الله تعالى بوجه الحكمة فيه، وإيجاده عليه، ولا ننفي أن يوجد بعده ضده، ونقول إنه إذا وجد ضده في الزمن الثاني، كان ذلك الضد في الزمان الثاني أبدع من الضد الأول، فكل موجود أبدع في وقته من خلافه.

والمعترض فهم من الكلام أنه إذا حكم على موجود بأنه أبدع استمر ذلك الحكم فيه إلى يوم القيامة، وانتفى إيجاد أحسن منه بعد ذلك، فألزم عليه الإشكال، وهذا غلط محض. بل المقصود أن كل ما أوجده الله في وقت فهو فيه أبدع من غيره، وله أن يوجد غيره في وقت بعده، ويكون ذلك الغير في ذلك الوقت أبدع من الأمر الأول، وهلم جرّا، فقد يوجَد في اليوم الواحد أضداداً كثيرةً على سبيل التعاقب في كل ساعة، ومنه ضد، فكل واحد أوجد في ساعته أبدع فيها من غيره، والذي أوجد في الساعة الثانية أبدع فيها من الذي أوجد في الأولى وفيما بعد، وهكذا كل ذلك مناطه اعتبار الحكمة في أفعال الله، وعلى هذا لا إشكال ألبته، ولا يحتاج كلام حجة الإسلام إلى تأويل، ولا صرف عن ظاهره، ونحن نرى أناساً أقامهم الله في أسباب، وهم يظنون أن غيرها أحسن حالاً منه، فلا يزالون حتى ينتقلون منها إلى غيرها، فلا ينتظم لهم فيها أمر ألبته، ويعودون إلى شر ما كانوا عليه، ويؤول أمرهم إلى العودة إلى السبب الأول، وهذا يُعرِّف كل ذي بصيرة أن الأبدع والأصلح في حق كل أحد ما أقامه الله عليه.

فإن قلت: قد انتهى الكلام على الحكمة في أجزاء العالَم دون حكمة كله، كاشتماله على الضدية مثلاً من حيوان أو جماد، ومتحرك وساكن، وغير ذلك، حيث يمتنع إيجاده وإيجاد غيره على غيرها.

قلت: قد تولى الله تعالى تبيين حكمة ذلك في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩).

قال المفسرون: هذه إشارة إلى المتضادات، والمقابلات من الأشياء، كالليل والنهار، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان، والهدى والضلالة، والشقوة والسعادة، وغير ذلك، وفي ذلك دلالتان:

الأولى: على أنه تعالى فرد لا ضد له ولا شبه، ولا عدل ولا مثل.

والثانية: على القدرة، حيث أوجدت الضدين بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً، كالتسخين والتبريد. فهذه عبارة السبكي في تفسير هذه الآية نقلاً عن مجاهد والطبري. وقد أردت أن أورد كلام حجة الإسلام بنصّه واختم به هذا الكتاب ليكون المسك ختامه، والبدر تمامه، والكلام الطيب نظامه.

قال رضي الله عنه في الإحياء: «لا ريب أن الله لو خلق الخلق كلهم، على عَقلِ أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عددهم جميعاً علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات، حتى اطلعوا بها على الخير والشر، والنفع والضرر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحِكَم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه، أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة، ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن تزال صحة أو كمال ، أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجَّعوا فيها البصر، وطوّلوا فيها النظر، لما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكله عدل محض، لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه، ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادّخره مع القدرة و لم يتفضَّل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقرٍ وضرٍ في الدنيا فهو نقصان في الدنيا، وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة، وكما أن نداء أرواح الإنس بأرواح البهائم، تسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة، على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص لم يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنسان، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة

خلق الكامل والناقص جميعاً، وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاءً على الروح عدل، لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه، وحق لا لعب فيه، وهذا بحر زاخر عظيم واسع الأطراف مضطرب الأمواج، قريب في السعة من بحر التوحيد، غرق فيه طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون، ومنع عن إفشاء سره المكاشفون، والحاصل أن الخير والشر مقضي به، وقد صار ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة، فلا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر، وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» هذا كلام الإحياء بحروفه، وقد قال في كتابه جواهر القرآن:

فصل

لا يكفي الإيمان بتوحيد الفعل والذات في إثارة حالة التوكل حتى ينضاف إليه الإيمان بالرحمة، والجود والحكمة، إذ به يحصل الثقة بالوكيل الحق، وهو أن تعتقد جزماً، أو ينكشف لك بالبصيرة أن الله تعالى لو خلق الخلائق كلّهم على عقل أعقَلِهم، بل على أكمل ما يتصور أن يكون حال العقل، ثم زادهم أضعاف ذلك علماً وحكمة، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، ولطائف الحكمة، ودقائق الخير والشر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت لما دبّروه بأحسن مما هو عليه، ولم يمكنهم أن يزيدوا ولا ينقصوا منه جناح بعوضة، ولم يستطيعوا ألبتة دفع مرض وعيب ونقص وفقر، وضر وجهل وكفر، ولا أن يغيروا قسمة الله من رزق وأجل، وقدرة وعجز، وطاعة ومعصية، بل شاهدوا جميع ذلك عدلاً لا جور فيه، وحقاً صرفاً لا نقص فيه، واستقامة تامة لا قصد فيها ولا تفاوت. بل كل يرون نقصاً يرتبط به كمال أجر أعظم منه، وما ظنوه ضرراً فتحته[1] يقع أعظم منه، لا يتوصل إلى ذلك النفع إلا به، وعلموا قطعاً أن الله تعالى جواد رحيم لم يبخل على الخلق أصلاً، ولم يدخر في اصطلاحهم أمراً، وهنا بحر زاخر في المعرفة يحرك أمواجه من القدرة الذي منع من ذكره المكاشفون، وتحير فيه الأكثرون، لا يعقله إلا العالمون، ولا يدرك تأويله إلا الراسخون.

---

(١) هكذا بالأصل ولعله: فنفعه.

وقال في موضع آخر من الجواهر أيضاً:

فصل

أنكر الرضا جماعة وقالوا: لا يتصور الرضا بما يخالف الهدى، وإنما يتصور الصبر فقط.

والجواب: أن الرضا بالبلاء ربما يخالف الطبع، ويتصور من ثلاثة أوجه.

أحدها: أن يدهشه مشاهدة الحب وإفراطها عن الإحساس بالألم.

والثاني: أن يحس بالألم ويكرهه بالطبع، ولكن يرضى به بعقله وإيمانه لمعرفته بجزالة الثواب على البلاء، كما يرضى بألم الفصد وبشرب الدواء لعلمه بأنه سبب الشفاء، وكذلك يرضى التاجر بمشقة السفر، وهو خلاف طبعه، وهذا أيضاً مشاهد مثله في الأعراض الدنيوية، فكيف ينكر في السعادة الأخروية؟

الثالث: أن يعتقد أن الله تحت أقداره أعجوبة لطيفة من لطائفه، وذلك يُخرج من قلبه لم وكيف؟ حتى لا يتعجب بما يجري في العالم، ويعلم أن تعجبه كتعجب موسى عليه السلام من الخضر لمّا خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، فلمّا كشف الخضر عن السر الذي أطلع عليه، سقط تعجبه. وتعجبه كان بناء على ما خفي عنه من تلك الأسرار، وكذلك أفعال الله تعالى.

حكي عن رجل من الراضين أنه كان يقول في كل ما يصيبه: الخيرة فيما قدره الله، وكان في بادية ومعه أهله، وليس لهم إلا حمار يحمل عليه خباءه، وكلب يحرسهم، وديك يوقظهم، فجاء ثعلب وأخذ الديك، فقال: خيرة، فجاء ذيب فقتل الحمار، فقال: خيرة، ثم أصيب الكلب فمات، فقال: خيرة، فتعجب أهله من ذلك حتى أصبحوا وقد سُبي مَن حولهم، واستُرِقّت أولادهم، وقد عُرف مكان بعضهم بصوت الديك، ومكان بعضهم بنهيق الحمار، وبعضهم بنبيح الكلب. فقال: قد رأيتم أن الخيرة فيما قدره الله، فلو لم يهلكهم لهلكتم وهلكنا.

وروي أن نبياً كان يتعبد في جبل، وكان بالقرب منه عين فاجتاز بها فارس وشرب ونسي عنده صرَّة فيها دنانير، فجاء آخر وأخذ الصرة، ثم جاء فقير وعلى رأسه حُزمة حطب فشرب واستلقى يستريح، فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها، فأخذ الفقير فصلبه وعذّبه حتى قتله، فقال النبي: إلهي، ما هذا، أخذ الصرة! ظالمٌ آخر، وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله؟ فأوحى الله إليه: اشتغل بعبادتك، فليس معرفة ذلك من

شأنك، إن هذا الفقير كان قتل أبا الفارس، فمكنته من القصاص، وإن أبا الفارس كان أخذ ألف دينار من مال من أخذ الصرة، فرددته إليه من تركته. فمن أتقن أمثال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال الله، وتعجب من جهل نفسه، ولم يقل لم وكيف؟ فرضي بما دبّر الله في ملكوته.

وهاهنا وجوه أربعة تتشعب عن محض المعرفة بكمال الجود والحكمة، وبكيفية ترتيبه الأسباب المتوجهة إلى المسببات، ومعرفة القضاء الأول الذي هو كلمح البصر، ومعرفة القدر الذي سبب ظهور تفاصيل القضاء، وأنها رُتبت على أكمل الوجوه وأحسنها، وليس في الإمكان أحسن منها وأكمل، ولو كان وادخر لكان بخلاً لا جوداً، وعجزاً يناقض القدرة، وينطوي تحت ذلك معرفة سر القدر، وكما أن من عرف سر ذلك لم ينطو ضميره إلا على الرضا، فكذلك كل ما يجري من الله. هذا كلامه في الجواهر بحروفه.

تنبيه

قد كنت قررت كلام حجة الإسلام بما قدمت تقريره قبل أن أقف على شيء من كلامه المذكور، وكلام غيره، فيما منَّ الله به، مع مراعاة الأحاديث والآثار المشيرة إلى ذلك، ثم لمّا وقفت على الفصل المنقول من الإحياء، والفصلين المنقولين من الجواهر رأيتهما عين ما قررت به، ونحوت إليه، فحمدت الله على ذلك كثيراً. ثم بلغني أن الشيخ بدر الدين الزركشي أحد أئمة المتأخرين من أصحابنا يتكلم على هذه الكلمة في تذكرته فتطلبته حتى وقفت عليه فقال:

فائدة

قال الغزالي: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لأنه لو كان ولم يفعله كان بخلاً يناقض الجود، أو عجزاً يناقض القدرة، وهذا من الكلمات العقم التي لا ينبغي إطلاق مثلها إلا في حق الصانع الذي لا يصنع أحد صنعته، ولا تنكر في بواطن الإبداع حكمته، فقد أوجد ما لا يمكن العقل إنكاره، فليس في الإمكان ممكن أبدع من الإنسان، لاشتماله على إحكام أنواع الوجود، فهو غاية الممكن بالنسبة إلى إدراك العقول النيرة، لا بالنسبة إلى عالِم السر والخفية، الكامل المطلق، التي لا تنتهي أحكامه، ولا تنفد عجائبه، فمراده ليس في الإمكان باعتباره ما هو محسن لماهية العقول، لا باعتبار ما في غيب الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨) فحكم العارف على قدر إدراكه، لا على قدر

إحكام ربه، فإن الرب تعالى محيط بكل شيء، وليس لأحد إحاطة بنوع من أنواعه من كل وجه، فإن لكل نوع أحكاماً متعددة، منها ما أطلع الله عليها خواصّ خلْقه، ومنها ما هو راجع له، قال: ومنهم من قال: معنى قوله ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، إذا كان إبداعه عين وجوده ليس غير ذلك، المعنى أنه ليس في الإمكان أبدع من وجوده، فإنه ممكن في نفسه، وما استفاد إلا الوجود، فلا أبدع في الإمكان من الوجود، وقد حصل، فإنه ما يحصل الممكن من الحق سوى الوجود، قال: ثم رأيت لابن القِرميسيني[1] جزءاً أفرده في الكلام على هذه العقدة وقال: معناه تناهت القدرة في خلق هذا البشر. إن هذا البشر زبْدَة المخلوقات، غاية في إظهار كمال القدرة والتعبير عنها، وأراد بالبشر محمداً ﷺ، فإنه الفاتح الخاتم، أهي[2] روحه؟ أول ما خلق روح محمد، ومنه تستمد الأرواح. انتهى ما أورده الزركشي بحروفه.

وأنت إذا تأملت الفصول الثلاثة المتقدمة من كلام الغزالي رأيت ما قررناه أقرب إلى مطابقتها، وأدنى إلى مقصوده مما حكاه الزركشي، وإن كان ما حكاه منافياً لما قررناه، ولما دلت عليه الفصول الثلاثة كل المنافاة، كما يدرك بالتأمل. ثم إن الغزالي نفسه سُئل عن هذه الكلمة، فأجاب عنها، وذلك في كتابه الذي سمّاه «الانتصار لما في الإحياء من الأسرار» وفيه ما معنى ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم، ولا أحسن ترتيباً ولا أكمل صنعاً، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلاً يناقض الجود الإلهي، وإن لم يكن قادراً عليه كان عجزاً يناقض الإلهية. فكيف يُقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختياراً؟ وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم، ويقال ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز، مثل ما قيل فيما ذكرناه، وما الفرق بينهما؟ فأجاب وذلك لأن تأخيره بالعالم قبل خلقه عن أن يُخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل وألا يفعل، فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة، التي عَرَّفَنا أنها حكمة، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجاري أفعاله، ومصادر أموره، وأن نتحقق أن كل ما أقضاه ويقضيه من خلقه بعلمه وإرادته وقدرته، إن ذلك على غاية الحكمة ونهاية الإتقان، ومبلغ جودة الصنع، ليجعل كمال ما خلق دليلاً قاطعاً وبرهاناً على كماله في صفات جلاله الموجبة لإجلاله، فلو كان ما خلق ناقصاً

---

(١) بكسر أوله والميم والسين المهملة، إلى قرميسين مدينة بالعراق. «لب اللباب» للسيوطي.

(٢) هكذا في الأصل.

بالإضافة إلى غيره، مما يقدر على خلقه ولم يخلقه، لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الموجود من خلقه، كما ظهر على من خلقه ناقصاً في أشخاص معينة ليدل على كمال ما خلقه غير ذلك، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من النقصان قطعاً، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظناً، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهوماً، وعرفهم ما أكن، وكشف لهم ما حجب وأجن، فيكونون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه، فتعالى الله رب العالمين الملك الحق المبين، وأيضاً فلا يعترض بهذا أو يشير به إلا من لا يعرف مخلوقاته، ولم يصرف الفكر الصحيح في منشآته ومخترعاته، ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة، ولا عرف خواصهما، ولا تنزه في عجائبهما، ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه، ولا جاوز التحرم إلى السفل من ذلك ببصره ولبه، ولا فهم أن الجنة أغنى النعيم، وأن النار أقصى العذاب الأليم، وأن الطوالية منتهى الكرامات، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هو نفي محض، إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح، وقدرة مثال وجُعِل لميقات، فهو حي وميت، ومتحرك وساكن، وعالم وجاهل، وشقي وسعيد، وقريب وبعيد، وصغير وكبير، وجليل وحقير، وغني وفقير، ومأمور وأمير، ومؤمن وكافر، وجاحد وشاكر، ومن ذكر وأنثى، وأرض وسماء، ودنيا وأخرى، وغير ذلك ما لا يحصى، والكل قائم به، وموجود بقدرته، وباق بعلمه، ومنته إلى أجله، ومصرف بمشيئته، ودال على بالغ حكمه، فما أكمل من محدثه إلا قدمه، ولا من تصرفه إلا استبداده، ومن ملكه إلا ملكه، تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخيل المتوهمين، وزيغ الزائغين. هذا جواب الغزالي بحروفه.

تنبيه

اعلم أن المستشكل من كلام حجة الإسلام أمران:

أحدهما: قوله: ليس في الإمكان أبدع مما خلقه الله.

والثاني: قوله في إقامة الدليل عليه، لأنه لو كان وادخر مع القدرة لكان بخلاً، يناقض الجود الإلهي، وظلماً يناقض العدل، ومع القدرة كان عجزاً يناقض القدرة الإلهية. فقدر بهذا الدليل أنه محال غير ممكن حتى لا يدخل تحت القدرة. ومحل التوقف في هذا الدليل قوله: وظلماً يناقض العدل، فإن الناس قد توقفوا فيه، وقالوا إنه يناسب أصول المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح على الله، وإلا فعلى أصول أهل السنة أنه لا يجب عليه فعل

الأصلح، لا يكون مناقضاً للعدل، لأن فعل الأصلح عندهم من باب الفضل، ولا شك أن الأمر كما قالوه من الإشكال، وقد توقفت فيه أياماً حتى منَّ الله بحلّه بعد التفرغ إليه، وإظهار الذل والافتقار، فألهمني الله وله الحمد، أن حجة الإسلام رضي الله عنه إنما أراد تقدير الدليل على مذهب الفريقين معاً ليتم له دعوى عدم الإمكان على المذهبين، فكأنه قال هو محال إجماعاً من الفريقين، أما على مذهب أهل السنة فلأن ادخاره مناف للفضل وهو الذي عبر عنه بالجود الإلهي، وأما على مذهب المعتزلة فلأن ادخاره عنده ظلم ينافي العدل، فأتى بكلمة جملت الفريقين، وليس مراده بالجملتين التقرير على مذهب واحد، ونظير ذلك ما لو سئل الشافعي عن رجل توضأ ولم ينو، ومسح القليل من رأسه، فقال: وضوءه باطل، لأنه لم ينو ولم يمسح ربع رأسه، قصد بذلك بطلان وضوئه إجماعاً، ولو اقتصر على قوله لأنه لم ينو لكان كافياً، لكنه لا ينتهض دليلاً على الإبطال إلا على مذهبه فقط، لا على مذهب الحنفي، فضم إليه ما يقرره إبطاله على مذهب غيره أيضاً. ويؤخذ أن هذا الذي فهمته هو مراد الغزالي، إنه لم يذكر الجملتين إلا في الإحياء فقط، ولم يذكر في الجواهر جملة العدل، بل اقتصر على جملة الفضل والجود التي يتم بها الدليل على مذهب أهل السنة، إما اكتفاءً بذلك وعدم الالتفات إلى مذهب المبتدعة، وإما إرادة الإيجاز، وإما إزالة الإبهام الذي توهمه عبارة الإحياء، ولهذا لم يذكر له في السؤال الذي تكلم عليه في الإملاء، إلا جملة الجود خاصة، ولم يورد عليه كلمة العدل، ولا ألزم بأنها جارية على قوانين المعتزلة، إما لكونه أبان لهم عن مراده بها حال التدريس، أو عرفوا هم ذلك لكونهم من أهل الفطنة الزائدة، والخبرة بمقاصد الله والمناظرين فاستغنوا عن السؤال عنها، وإنما أوردوا عليه لزوم مثل ذلك قبل إيجاد العالَم فقط، وطلبوا الفرق، فبيّن لهم فرق ما بين الحالين. هذا ما فتح الله به وله الحمد.

وأما إطلاق لفظة البخل الواقعة في حيز الامتناع، فإنما أراد بها الغزالي المبالغة في تقريب الدليل إلى الأذهان فكأنه قال: لا شك في أن الباري تعالى جواد لا يبخل، وهو منزّه عن البخل، والجود لا يختص بعطائه أحداً دون أحد إلا لحكمة، وقد قتّر على أناس كما وسّع على آخرين، فلو لم يكن تقتيره على أولئك لحكمة، وأنه هو الأصلح في حقهم لكان منافياً للجود والفضل، وهو في حقه تعالى مُحال، تنزه عما ينافي صفة الجود، والأفضل. وأنت إذا تأملت ما قاله بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦) إن النكتة في العدول عن فاعل إلا فعّال، إن أدنى الظلم لو فرض صدوره من الباري تعالى لكان عظيماً بالإضافة إلى جنابه، كما يقال: زلة العالم كبيرة في النفي

بحسب ذلك، وتأملت قول المتنبي يخاطب بعض الكرام: يا من وَهَب الدنيا فقد بخلا، يريد أن ممدوحه تناهى في الكرم، بحيث لو وهب جميع ما حوته الدنيا لكان بالإضافة إلى ما يقتضيه مقامه بخلاً، انحل عندك الإشكال في إطلاق هذه اللفظة.

تنبيه

العجب كل العجب ممن اتهم حجة الإسلام بأنه في هذه المسألة نازعٌ إلى مذهب المعتزلة، وهو قد صرح في كلامه بما يناقض مذهبهم، حيث قال في صدر كلامه: وما خلق الله من إيمان وكفر، وطاعة ومعصية إلى آخره، فانظر كيف نسب خلق الكفر والمعصية إلى الله، كما هو مذهب أهل السنة، والمعتزلة لا يقولون بذلك، بل يزعمون أنهما من خلق العبد كما هو معروف عنهم. وهذه نبذة من كلام أهل السنة موافقة في المعنى لكلام الغزالي ، وشاهده ما تقدم تقريره.

فصل

قال البيضاوي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ الآية (البقرة:٢٩) وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩) فيه تعليل كأنه قال: ولكونه عالماً بكيفية الأشياء كلها، خَلَقَ ما خَلَقَ على هذا النمط الأكمل، والوجه الأنفع، واستدل بأنه مَنْ كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عالماً، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأنفع الأحسن لا يتصور إلا من عالم حكيم.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (البقرة:١٦٤): اعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدانيته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجمل أنها أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة. وإنما مختلفة إذا كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات أو بعضها كالأرض، وأن تتحرك بعكس حركتها بحيث تسير المنطقة دائرة مارة بالقطبين، وألا يكون أوج وحضيض أصلاً. وعلى هذا الوجه لبساطتها، وتساوي أجزائها، فلا بدّ لها من موجد، قادر حكيم موجدها على ما تستدعيه حكمته وتقتضيه مشيئته. انتهى.

وقال في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ -إلى قوله- وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦) فيه دليل على أن الأحكام تبع المصالح الراجحة، وإن لم يعرف عينها.

ونقل الطيبي في هذه الآية عن الزجاج أنه قال: معنى كراهتهم القتال أنه من حيث ألمه غِلظة عليهم ومشقة، لا أن المؤمن يكره ما فرض الله تعالى لأنه لا يقبل إلا ما فيه الحكمة والصلاح.

فصل

وقال الطيبي في حاشية «الكشاف» عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة:٢٠٥): الإفساد في الحقيقة إخراج الشيء من حالة محمودة لا لغرض صحيح، وذلك غير موجود في فعل الله وما تراه من فعله إفساد، فهو بالإضافة إلينا وباعتبارنا، فأما بالنظر الإلهي فكلٌ إصلاح، ولهذا قيل: يا من إفساده إصلاح، أي: ما نعده نحن إفساداً فهو بالإضافة إلينا وباعتبارنا، لقصور نظرنا، وأما بالنظر الإلهي، فكله إصلاح،

فصل

قال الإمام فخر الدين والأصبهاني في أول سورة آل عمران لما ذكر تعالى أنه قيوم: وهو القائم بإصلاح مصالح الخلق، ولا يتم ذلك إلا بأمرين، كونه عالماً بجميع حاجاتهم على جميع الوجوه، وكونه قادراً على دفعها. والأول لا يتلم إلا بكونه عالماً بكل شيء، والثاني لا يتم إلا بكونه قادراً على كل ممكن، أشار إلى الأول بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران:٥) وإلى الثاني بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (آل عمران:٦) قال: وفي هذا لطيفة أخرى وهي أن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ لا يجوز إثباته بالسمع، لأن معرفة السمع موقوفة على كونه عالماً بكل شيء، بل بالدليل العقلي، وهو أن يقال: إن أفعاله تعالى محكمة متقنة، والفعل المحكم المتقن يدل على كون فاعله عالماً، فذكر الدليل العقلي الدال عليه، وهو أنه هو الذي صورهم في الأرحام على هذه البنية العجيبة والهيئة الغريبة، وركّب الأعضاء المختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام، وبعضها أعصاب، وبعضها أوردة، وبعضها عضلات، ثم إنه ضم بعضها إلى بعض على أحسن التركيب، وأكمل التأليف، وذلك يدل على كمال قدرته، حيث خلق ذلك من نطفة، وعلى كمال علمه من حيث إن الفعل المحكم المتقن على هذا الوجه، لا يتصور إلا من العالم، فكان قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ دالاً على الأمرين معاً.

فصل

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ -الآية إلى قوله- الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٦٣) كالحجة على الوحدانية، فكأنه لما كان مولى النعم كلها، أصولها وفروعها وما سواه، إما نِعمة أو مُنعَم عليه لم يستحق العبادة غيره.

قال الشيخ سعد الدين: فإن قيل الكفر والمعصية وسائر القبائح ليست بنعمة ولا منعَم عليها، قلنا هي كلها من حيث القابلية والفاعلية، وما يرجع إلى الوجود والسببية نعمة ومرجع الشر والقبيح إلى العدم.

فصل

وقال الشيخ سعد الدين في حاشية «الكشاف» عند قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ (البقرة:٢٠٢) مِنْ للتبعيض على أنهم لا يعطون إلا البعض مما طلبوا، وهو القدر الذي استوجبوه في الدنيا نظراً إلى المصالح، وفي الآخرة نظراً إلى الاستحقاق. إن الصانع حكيم، ولا يفعل ما ليس بمصلحة، ولا يعطي ما ليس بمستحق.

فصل

وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ (البقرة:٢٤٥) يقتِّر على بعض ويوسِّع على بعض حسب ما اقتضته حكمته، وقال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة:٢٤٧) لما استبعدوا تملك طالوت لفقره وسقوط نَسَبِه، رد عليهم ذلك بان العبرة فيه اصطفاء الله، وقد اختاره عليكم وهو اعلم بالمصالح منكم.

فصل

وقال الشيخ سعد الدين عند قوله تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ (البقرة:٢٥٨) قد حكى قوله «الكشاف»: إن الله يؤتي الكافر الملك، يعني: لأنه قبيح، قال: لو سلم فما من قبيح إلا ويعتبر منه غرض صحيح، مثل الامتحان.

فصل

وقال الشيخ تقي الدين السبكي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ (القمر:٥) أي: تامة بلغت الغاية في كل ما يوصف به.

فصل

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ (النساء:١١) يعني الكلام أنه تعالى قد فرض الفرائض على ما هو عنده حكمة، ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم، فتصرفون الأموال على غير حكمة، ولهذا أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:١١) أي: عليم بما يصلح لخلقه، حكيم بما فرض.

وقال ابن عطية في الآية: هذا تعريض للحكمة في ذلك، وتأنيس للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه الصفة.

وقال أبو حيان في الآية: بيّن تعالى أن القسمة هي القسمة التي اختارها وشرعها، وأن الآباء والأبناء الذين شرع في ميراثهم ما شرع، لا ندري من أيهم أقرب نفعاً، بل علم ذلك منوط بعلم الله وحكمته، فالذي شرعه هو الحق لا ما يخطر بعقولنا، فإذا كان علم ذلك عازباً عنّا، فلا نخوض فيما لا نعلم إذ هي أوضاع من الشارع لا نعلم عللها، ولا ندركها، بل يجب التسليم فيها لله ولرسوله، وجميع المقدورات الشرعية في كونها لا تعقل عللها مِثلُ قسمة المواريث سواء.

فصل

وحكى المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (النساء:٢٦) قولين:

أحدهما: أن هذا دليل على أن كل ما بيّن لنا تحريمه وتحليله من النساء في الآيات المتقدمة، فقد كان الحكم كذلك أيضاً في جميع الشرائع والملل.

الثاني: أنه في بيان ما تم من المصلحة لأن الشرائع وإن كانت مختلفة في نفسها، متفقة في باب المصالح، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بوجوه المصالح، حكيم بوضع الأشياء مواضعها، بحسب الحكمة والاتقان، انتهى.

وهذا الثاني مؤيداً لما تقدم تقريره، أن الشيء قد يشرع في وقت ويكون إذ ذاك أبدعَ مِن خلافه لحكمة تقتضيه، ثم يشرع في وقت بعده خلافه، ويكون هذا الخلاف أبدع في هذا الوقت من المشروع أولاً لما اقتضاه من الحكمة.

فصل

ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين واستحسنه في قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء:٣٢) قال: نُهوا عن الحسد، وعن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال، لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير، وعلم بأحوال العباد، بما يصلح للمقسوم عليه من بسط الرزق، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (النساء:٣٢) أي: علمه محيط بجميع الأشياء فهو عالم بما فضل به بعضكم على بعض، وما يصلح لكل منكم من توسيع أو تقتير، فإياكم والاعتراض بتمنٍّ أو غيره، انتهى.

وذكر البيضاوي في تفسير هذه الآية نحوه ثم قال: قال أبو حيان: وقد اختلفوا إذا تمنى حصول نعمة الفضل عليه به من غير أن تذهب عن المفَضَّل، فظاهر الآية المنع، وبه قال المحققون لأن تلك النعمة ربما كانت مَفسَدَة في حقه في الدين، ومضرة عليه في الدنيا، فلا يجوز أن يقول: اللهم أعطني داراً مثل دار فلان، ولا زوجاً مثل زوجه، بل يسأل الله ما شاء من غير تعرض لمن فُضِّل عليه، وقد أجاز ذلك بعض الناس.

فصل

قال الإمام فخر الدين في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١) هذه الآية دالة على فضل العلم، فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم إلا بأن أظهر علمه، فلو كان بإمكان وجود شيء أشرف من العلم، كان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم، انتهى.

فهذا صريح من الإمام بأنه ليس في الإمكان أشرف من العلم.

فصل

وسأل سائل: ما الحكمة في خلق آدم؟ فقلنا هذا السؤال قد تولى الله جوابه، حيث سأله الملائكة عن ذلك فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)

قال الإمام فخر الدين: إنما سال الملائكة ما سألوه طلباً للحكمة فأجابهم إن مصلحتكم أن تعرفوا أن وجه الحكمة على الإجمال دون التفصيل، فربما كان التفصيل مَفسدَة لكم، وقال في الآية التي بعدها: اعلم أن الملائكة لما سألوه عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته، وإسكانه إياهم الأرض، أخبر الله تعالى عن وجه الحكمة في ذلك على سبيل الإجمال

بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أراد الله تعالى أن يزيدهم بياناً وأن يفصل لهم ذلك المجمل، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن ذلك معلوماً لهم، وذلك بأن علّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، ليظهر لهم كمال فضله، وقصورهم عنه في العلم، فيتأتى بذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي.

فصل

وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة:٤٨) قال المفسرون: هذا نص من الله بأنه شرع الشرائع مختلفة على حسب ما اقتضته الحكمة.

وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة:٦٤) أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته.

فصل

قال الراغب فيما نقله الطيبي في حاشية الكشاف، وكلاهما من أئمة السنة: الحُكْمُ والحِكْمَةُ من أصل واحد[١]، إلا أنه إذا كان في القول قيل له حكم، وقد حكم، وإذا كان في الفعل قيل حكمة، وحكيم له حكمة، فإذا قلت: حكمت بكذا قضيت فيه بما هو حكمه، فإذا قيل: حُكم فلان باطل فمعناه أجرى الباطل مجرى الحكم، فحكم الله تعالى مقتض للحكمة لا محالة، فنبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة:١) أي ما يريده فجعله حكمه، وذلك حث للعباد على الرضا بما يقضيه، فالله يحكم ما يريد، وحكمه ماض، ومن رضي بحكمه استراح في نفسه، وهدي لرشده، ومن سخط نفذ حكمه، واكتسب بسخطه سخط الله تعالى وإهانته، كما ورد[٢]: «مَنْ لم يَرضَ بِقَضَائي و لم يَصبِرْ عَلى بَلائِي، فَليطلُبْ رَبّاً سِواي».

---

(١) قال الراغب: والحُكْم أعم من الحِكْمَة فكل حِكمَة حُكمٌ، وليس كل حُكم حِكمَة، فإن الحُكمَ أن يقضى بشيء على شيء فيقول: هو كذا، أو ليس كذا. «مفردات القرآن».

(٢) قال الحافظ العراقي في تخرج أحاديث الإحياء: رواه الطبراني في «الكبير» وابن حبان في «الضعفاء» من حديث أبي هند الداري، وإسناده ضعيف، «الإحياء/ فضيلة الرضا». وقال الهيثمي: فيه سعيد بن زياد وهو متروك، «مجمع الزوائد» (القدر، ٧:٢٠٧). وروى البيهقي في «شعب الإيمان» وابن النجار من حديث أنس نحوه، «الإتحافات السنية» للمدني رقم(٧). وروى الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدره، فليلتمس إلهاً غير الله» قال الهيثمي: فيه سهيل بن أبي حازم وثقه ابن معين وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد» (القدر، ٧:٢٠٧).

فصل

وقال النووي في شرح المهذب في باب آداب المعلم وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان، فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة، و لم يذمّه الله احترازاً من المعاصي[1]، هذه عبارته، وهو صريح في أن المعاصي على مقتضى الحكمة، وإنما تكره لأنه ذمّها.

فصل

وقال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٢٨) ختم الآية بهذين الوصفين للإشارة إلى أنه تعالى إنما يغني بحسب المصلحة والحكمة.

فصل

وقال أبو طالب المكي في كتاب «قوت القلوب»: ومن الرضا أن لا يذم شيئاً مباحاً ولا يعيبه، إذا كان ذلك بقضاء مولاه مشاهداً للصانع في جميع الصنعة، ناظراً إلى إتقان الصنع والحكمة وإن لم يَخرُجْ ذلك على معيار العقل والعادة، وبعض العارفين يجعل هذه الأشياء من باب الحياء من الله تعالى، ومنهم من يقول: هي من حسن الخلق مع الله، ومنهم من باب الأدب بين يدي الله، ويصلح أن يكون هذا أحد معاني الخبر الذي جاء «قِلَّةُ الحَيَاءِ كُفرٌ»[2] بمعنى أنه بدّل شكر نعمة الله كفراً، لأن أحداً لو اصطنع لك طعاماً فعبته وذممته له لكره منك ذلك، فكذلك الله تعالى يكره منك ذلك، وهذا داخل في معرفة معاني الصفات، وفي معنى ما قيل: «أَعْرَفَكُم بنفسِهِ أَعْرَفَكُمْ بِرَبِّهِ»[3].

---

(١) «شرح المهذب» ١:٢٨ باب آداب المعلم.

(٢) روى أبو نعيم في «الحلية» (٤:٢٩٧) والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «الحياء والإيمان قُرنا جميعاً فإذا رُفِع أحدهما رفع الآخر» قال الحاكم: هو صحيح على شرطهما، فقد احتجا برواته و لم يخرجاه بهذا اللفظ، وأقره الذهبي «الإيمان» (١:٢٢) وقال الحافظ العراقي: حديث صحيح غريب إلا أنه اختلف على جرير بن حازم في رفعه ووقفه، وأشار السيوطي إلى صحته. «فيض القدير» (٣٨٦٠).

(٣) المشهور عند العلماء بلفظ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» قال السيوطي: هذا الحديث ليس بصحيح، وقد سئل عنه النووي في «فتاويه» فقال: إنه ليس بثابت. وقال ابن تيمية: موضوع. وقال الزركشي في «الأحاديث المشتهرة»: ذكر السمعاني أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي «الحاوي للفتاوي» (٢:٤١٢). وقال العجلوني في «كشف الخفاء» ذكر بعض الأصحاب أن الشيخ محيي الدين بن عربي قال: هذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية، فقد صحّ عندنا من طريق الكشف، رقم (٢٥٣٢).

لأنـك إذا عرفـت صفـات نفسـك في معاملـة الخلـق، عرفـت منهـا صفـات خـالقك[1]، وبعض الراضين يجعل ذم الأشياء وعيبها بمنزلة الغيبة لصانعها لأنها صنعته، ونتـاج حكمته ونفاذ علمه، لأنه احكم الحاكمين وخير الرازقين، له في كل شيء حكمة بالغة، وفي كل صنعة صُنع مُتقن، ولأنك إذا أعبت صنعة أحد وذممتها سرى ذلك إلى الصانع، لأنه كذلك صنعها وعن حكمة أظهرها، فإذا كان الورعون لا يعيبون صنعة عبد كراهية الغيبة له، فمثل هذا أولى فهذه ذنوب المتقين، وسيئات العارفين، تابوا إلى الله منها واستغفروا، ذلك أن الراضي عن الله يتأدب بين يدي الله، يستحيي أن يعارضه في ذلك، فصاحب الدار يصنع في داره ما يشاء، والحاكم يحكم بعدله ما يشاء، والعبد راض بصنع سيده، مُسلّم لحكم حاكمه.

ألم تر إلى ما روي أن عيسى عليه السلام مر في نفر من أصحابه بجيفة كلب ميت فقالوا: ما أنتن ريحه؟ فقال: ما أشد بياض أسنانه؟ يعلمهم ترك عيب الأشياء. كيف وهو يشهد بعين يقينة إلى الصنعة بيد صانعها لم تخرج من يده، فهو يقلبها بيده، ويصرفها عن معاني نظره.

فصل

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن»: اعلم أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو ندباً إلا ولمصلحة لهم في ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريماً أو كراهة إلا والمصلحة لهم في تركه، ولسنا نقول كمن قال: من عدل به عن طريق الهدى إنه يجب على الله رعاية مصالح عباده، بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة فعلها مع عباده على سبيل التفضّل، فليت شعري إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه لشيء؟ وهذا عين ما فهمناه من كلام الغزالي وقررناه.

فصل في أحاديث وآثار مناسبة لما تقدم

أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى وأنزل عليه التوراة قال: اللهم إنك رب عظيم، ولو شئت أن تطاع لأُطِعت، ولو شئت أن لا تُعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون، فلما بعث الله عزَّ وجلَّ عزيراً وأنزل عليه

(١) ذكر السيوطي في «الحاوي» أقوال العلماء في شرح حديث: «من عرف نفسه» يُراجع.

التوراة بعدما كان رفعها عن بني إسرائيل، حتى قال من قال منهم إنه ابن الله قال: اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تُطاع أُطعت، ولو شئت أن لا تُعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت تُعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون، فأبت نفسه حتى سأل ثلاثاً، فقال الله له: أتستطيع أن تَصُرَّ صَرَّة[1] من الشمس؟ قال: لا، قال: أتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال: لا، قال: أفتستطيع أن تأتي بمثقال من نور؟ قال: لا، قال: فهكذا لا تقدر على الذي سألت عنه، إني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون، أما إني لا أجعل عقوبتك إلا أن أمحي اسمك من الأنبياء، فلا تُذكر فيهم، فمحي اسمه من الأنبياء فليس يُذكر فيهم وهو نبي. ثم سال عيسى بمثل ما أجاب به عزيراً، ثم قال له: لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك، إني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون، فجمع عيسى من تبعه فقال: القدر سر الله فلا تكلفوه[2].

وأخرج الطبراني في «الأوسط» بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قالت بنو إسرائيل: يا موسى يخلق ربك عزَّ وَجَلَّ خلقاً ثم يعذبهم؟ فأوحى الله إليه أن ازْرَع فَزَرَعَ، ثم قال احْصُدْ فحَصَدَ، ثم قال ذُرْه فَذَراه، فاجتمع القشّ، فقال: لأي شيء يصلح هذا؟ قال: للنار، قال: فكذلك لا أعذب من خلقي إلا من استأهل النار[3].

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أنه سئل عن القدر فقال: وجدت أجرأ الناس فيه حديثاً أجهلهم به، وأضعفهم فيه حديثاً أعلمهم به، ووجدت الناظر فيه كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد فيه نظراً ازداد فيه تحيراً[4].

وأخرج ابن جرير عن ابن جهيرة قال: بلغني أن موسى عليه السلام قال: يا رب خَلَقُك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة، وفريقاً في النار، لو أدخلتهم كلهم الجنة، فقال: يا موسى ارفع ذرعك، قال قد رفعت، قال ارفع، قال قد رفعت، قال ارفع، قال قد رفعت إلا ما لا خير فيه، قال كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه.

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» وابن أبي الدنيا في كتاب «حلية الأولياء» عن أنس، عن

---

(١) الصرّ: الحبس والمنع، «النهاية» لابن الأثير.

(٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه أبو يحيى القتات وهو ضعيف عند الجمهور وقد وثقه ابن معين في رواية وضعفه في غيرها، ومصعب بن سوار لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» (٧: ١٩٩) كتاب القدر، التسليم لما قدره الله سبحانه. وراجع أيضاً الحديث رقم /٢/ صفحة /٤٧٥/.

(٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» (٧: ٢٠١).

(٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه يزيد بن أبي سلمة ضعفه ابن معين. «مجمع الزوائد» (القدر، ٧: ٢٠١).

النبي ﷺ، عن جبريل، عن الله عَزَّ وجَلَّ قال: «مَنْ أهانَ لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضَبُ اللَّيثُ الحَرِدُ، وما تقرب إليّ عبدي المؤمن بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي المؤمن يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته ولا بدّ له منه، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفّه عنه أن لا يدخله العجب فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو بسطت له أفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم، إني عليم خبير»[1].

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: رُبَّمَا سَأَلَنِي وَلِيِّي الْمُؤمِنِ الغِنَى فَأَصْرِفُهُ مِنَ الغِنَى إلى الفَقرِ، ولَوْ صَرَفْتُهُ إلى الغِنَى لَكَانَ شَرّاً لَهُ، ورُبَّمَا سَأَلَنِي ولِيِّي المؤمِنِ الفَقرَ فَأصرفُهُ إلى الغِنَى، ولَوْ صَرَفْتُهُ إلى الفَقرِ لَكَانَ شَرّاً لَهُ»[2].

وأخرج الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه قال: يقول الله إن من عبادي المؤمنين من يسألني الشيء من العبادة، فأحبسه عنها مخافة أن يدخل عليه الإعجاب فيفسد عليه عمله، وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح له إلا الفقر، ولو صرفته إلى الغنى لهلك.

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي هريرة مرفوعاً: قال موسى: يا رب أعطيت الدنيا أعداءك ومنعتها أولياءك، فما الحكمة في ذلك؟ فأوحى الله إليه أعطيتها

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨:٣١٨) من حديث أنس، وقال المدني في «الإتحافات السنية»: وأخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء»، والحكيم الترمذي، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، وابن عساكر، كلهم عن أنس، رقم (٢٢٩). قال أبو نعيم: غريب من حديث أنس، لم يروه عنه بهذا السياق إلا هشام الكتاني، وعنه صدقة بن عبدالله أبو معاوية الدمشقي، تفرد به الحسن بن يحيى الخشني. قال ابن حجر: الحسن صدوق كثير الغلط، «التقريب» رقم (٣٣٠)، قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث لم يصح، «الفتح، الرقاق، التواضع». قلت: روى البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة طرفاً منه إلى قوله: «وأنا أكره مساءته» ودون قوله: «وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد»، «الرقاق، التواضع».

(٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه رجال لم أعرفهم، «مجمع الزوائد» (الزهد، فيما يصلح للمؤمن ١٠:٢٧٠).

أعدائي ليتمرغوا ومنعتها أوليائي ليتضرعوا.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان في كتاب «الثواب» عن كليب الجهيني، عن النبي ﷺ قال: «لَولا أنَّ الذَّنبَ خيرٌ لِعبْدِيَ المُؤمِنِ مِنَ العَجَبِ مَا خَلَّيتُ بَينَ عَبدِيَ المؤمِنِ وبَينَ الذَّنبِ».

وأخرج الديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً: «لَولا أنَّ المؤمنَ يُعجَبُ بعمَلِهِ لعُصِمَ مِنَ الذَّنبِ حتَّى لا يهمَّ بِهِ، ولَكنَّ الذَّنبَ خَيرٌ لَهُ مِنَ العُجبِ».

وأخرج أبو نعيم والحاكم في «التاريخ» عن أنس، والديلمي عن أبي سعيد، قالا: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكونُوا تُذنِبُونَ لَخفْتُ عَلَيْكُم مَا هُوَ أكبَرُ مِنْ ذَلِكَ العُجبِ العُجبِ»[1].

وأخرج أحمد في «الزهد» من مرسل الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العَبدَ لَيُذنِبُ الذَّنبَ فَيدخِلُهُ اللهُ بِهِ الجَنَّةَ، قَالُوا: يَا رسُولَ اللهِ كَيفَ يُدخلُهُ الجَنَّةَ؟ قَالَ: يَكونُ نصبَ عَينيهِ فَارَّاً مِنهُ تَائِبَاً حَتَّى يُدخلَهُ ذَنبُهُ الجَنَّةَ»[2].

وأخرج عبدالله في «زوائده» عن أبي حازم قال: إن الرجل ليذنب الذنب، وما عمل من حسنة قط أنفع له منه، ويعمل الحسنة ما عمل سيئة قط أضر عليه منها.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «الرضا» عن سعيد بن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني لا ينزل بك مرّ رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير منك أن ذلك خير، قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت كله، قال: يا بني فإن الله قد بعث نبياً هلمّ حتى نأتيه نصدقه، قال: اذهبْ يا أبت، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودوا، ثم سارا أياماً وليالي حتى تلقتهما مفازة، فأخذا أهبتهما لها، فدخلاها فسارا ما شاء الله حتى ظهروا وقد تعالى النهار، واشتدّ الحر ونفد الماء والزاد، واستبطأ حماريهما فنزلا، فجعلا

---

(١) قال الهيثمي: رواه البزار من حديث أنس وإسناده جيد. «مجمع الزوائد» (الزهد، ما جاء في العجب). وقال الحافظ العراقي: رواه البزار وابن حبان في «الضعفاء» والبيهقي في «الشعب» من حديث أنس، وفيه سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: حسن الحديث. ورواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً. تخريج أحاديث الإحياء، ذم العجب.

(٢) رواه عبدالله بن المبارك في «الزهد» رقم (١٦٢)، ولأبي نعيم في «الحلية» من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن العبد ليعمل الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه قد أحزنه غفر له ما صنع» (١٧٦:٦) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: فيه صالح المري وهو رجل صالح ولكنه مضعف في الحديث (التوبة،٤: ١٢). ورواه الطبراني في «الأوسط» وفيه داود بن المحبر وهو ضعيف. «مجمع الزوائد» (الزهد، ١٠: ١٩٩).

يشدان على سُوقهما إذ نظر لقمان أمامه فإذا بسواد ودخان، فقال في نفسه السواد والشجر والدخان، العمران والناس، فبينما هما كذلك يشتدان إذ وطئ ابن لقمان على عظم، فأتى على الطريق فخرّ مغشياً عليه، فوثب إليه لقمان فضمّه إلى صدره واستخرج العظم بأسنانه ثم نظر إليه، فذرفت عيناه، فقال: يا أبت أنت تبكي وأنت تقول: هذا خيرٌ لي، كيف يكون هذا خيراً لي وقد نفد الطعام والماء؟ وبقيت أنا وأنت في المكان، فإن ذهبت وتركتني على حالي ذَهبتَ بهمٍّ وغمٍّ ما بقيتُ، وإن أقمتَ معي متنا جميعاً، فقال: يا بني أمّا بكائي فرِقّة الوالدين، وأمّا ما قلتَ، كيف يكون هذا خيراً لي؟ فلعلَّ ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت أيسر مما صرف عنك، ثم نظر أمامه فلم ير ذلك الدخان والسواد، وإذا شخص أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بيض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحاً، فلم يزل يَرمُقُه بعينه حتى إذا كان منه قريباً توارى عنه ثم صاح به أنت لقمان؟ قال: نعم، قال: أنت الحكيم؟ قال: كذلك، قال: ما قال لك ابنك؟ قال: يا عبد الله من أنت؟ أسمع كلامك ولا أرى وجهك، قال: أنا جبريل، أمرني ربي بخسف هذه المدينة ومن فيها، فأخبرت أنكما تريدانها، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء، فحبسكما بما ابتلي به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسفت، ثم مسح جبريل يده على قدم الغلام فاستوى قائماً، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً، وعلى الذي كان فيه الماء[1] فزحل[2] بهما كما يزحل المطر، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالي.

وأخرج أبو نعيم في «الحلية» عن وهب قال: قرأت في بعض الكتب فوجدت الله يقول: يا ابن آدم، إن أحب ما تكون إليّ، وأقرب ما تكون مني إذا كنت راضياً بما قسمت لك، وأبغض ما تكون مني إذا كنت ساخطاً لاهياً عما قسمت لك، يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك، ولا تعلمني بما يصلحك، إني عالم بخلقي[3].

وأخرج أبو نعيم[4] عن وهب قال: إن من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن خلق الخلق مختلفاً خَلْقُه ومقاديره، فمنه خَلْقٌ يدوم ما دامت الدنيا، لا تنقصه الأيام، ولا تُهرمه ولا تميته،

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله: فامتلأ بالماء.

(٢) زحل بهما: أي دفع بهما.

(٣) «حلية الأولياء» (٤:٢٧).

(٤) «حلية الأولياء» (٤:٢٩).

ومنه خلقٌ تنقصه الأيام وتهرمه وتبليه وتميته، ومنه خلق لا يطعم ولا يرزق، ومنه خلق يطعم ويرزق، خلقه الله عَزّ وَجَلّ وخلق معه رزقه، ثم خلق الله تعالى من ذلك خلقاً في البر وخلقاً في البحر، ثم جعل رزق ما خلق في البر من البر، ورزق ما خلق في البحر من البحر، ولا يصلح خلق البر في البحر ولا خلق البحر في البر، ولا ينفع رزق دواب البحر دواب البر، ولا رزق دواب البر دواب البحر، إذا خرج ما في البحر إلى البر هلك، وإذا دخل ما في البر إلى البحر هلك، ففي ذلك من خلق الله في البر والبحر عبرة لمن أهمته قسمة الأرزاق والمعيشة، فليعتبر ابن آدم فيما قسم الله من الأرزاق، إنه لا يكون فيها شيء إلا كما قسمه بين خلقه، ولا يستطيع أحد أن يغيرها ولا أن يخلطها، كما لا تستطيع دواب البر أن تعيش بأرزاق دواب البحر، ولو تضطر إليه ماتت كلها، ولا تستطيع دواب البحر أن تعيش بأرزاق دواب البر، ولو تضطر إليه أهلكها ذلك كلها، فإذا استقرت كل دابة منهما فيما رزقت أحياها ذلك وأصلحها، وكذلك ابن آدم إذا استقر وقنع بقسمته من رزق الله أحياه ذلك وأصلحه، وإذا تعاطى رزق غيره نقصه ذلك وضرّه.

وأخرج أبو نعيم[1] عن وهب قال: ألم يفكر ابن آدم ثم يتفهم ويعتبر ثم يبصر ثم يعقل ويتفقه حتى يعلم فيتبين له أن لله حلماً به يُحلّم الحلماء، وعلماً به يُعلّم العلماء، وحكمة بها يتقن الخلق ويدبر بها أمور الدنيا والآخرة، فإن ابن آدم لن يبلغ بعلمه لقَدْرِ علم الله، الله الذي لا مقدار له، ولن يبلغ بحلمه المخلوق حلم الله الذي به خلق الخلق كله، ولن يبلغ بحكمته حكمة الله التي بها يتقن الخلق ويقدر المقادير.

وأخرج أبو نعيم[2] عن وهب قال: إن الله عَزّ وَجَلّ حين فرغ من خلقه نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال: أنا الله الذي لا إله إلا أنا، الذي خلقتك بقوتي، وأتقنتك بحكمتي، و لم أخلق شيئاً مما خلقت لحاجة كانت مني إليه، ولكن لأبين قدرتي ولينظر الناظرون في ملكي وتدبير حكمتي، ولتدين الخلائق كلها لعزتي، وتسبح الخلائق كلهم بحمدي، ولِتَعْنَى[3] الوجوه كلها لوجهي.

وأخرج أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب: لولا أني كتبت النَّتْنَ

(١) «حلية الأولياء» (٤:٢٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٤:٢٤).
(٣) تعنى الوجوه، أي تخضع.

على الميت لحبسه الناس في بيوتهم، ولولا أني كتبت الفساد على الطعام لخزنه الأغنياء عن الفقراء، ولو أني أذهبت الهم والغم لم تعمر الدنيا و لم أعبد[١].

وأخرج البخاري في تاريخه عن أنس عن النبي ﷺ قال: «عَجَبَاً للمُؤمِن، إنَّ الله لا يَقضِي لَهُ قَضَاءً إلا خَيراً لَهُ»[٢].

وأخرج ابن جرير في «تفسيره» عن ابن عباس قال: كنت رِدفُ النبي ﷺ فقال: يا ابن عباس، ارض عن الله بما قدَّر وإن كان خلاف هواك، فإنه مثبت في كتاب الله، قلت: يا رسول الله فأين؟ وقد قرأت القرآن، قال: قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[٣] (البقرة:٢١٦).

فصل

وقف واقف على هذه الكراسة فكتب عليها ما حاصله: إن هذا التقدير ناشئ من قلة البضاعة من علم الكلام، إنه يقتضي أن الإبداع لا يدخل تحت القدرة، مع أن الأدلة المذكورة لا تستلزم ذلك، فلا نتيجة، وكذا الكلام المسوق آخراً، وأكثَرَ مِنْ عَدِّ كُلّ تقرير من قول ذلك، مع أنّا لم نَدَّعِه، ولا ادّعاه الغزالي، وأوضح دليل أن هذا ليس المدعى كون الأدلة التي أوردناها لا تدل على ذلك، فكيف تدعي شيئاً وتقيم عليه دليلاً ليس فيه دلالة على المطلوب، وما أظن أن الحامل لهذا الواقف على ذلك إلا أحد أمرين:

أحدهما: وهو الأظهر، عدم الفهم، فلم يدرك المقصود من التقرير ولو أدركه لم يقل ما قاله.

والثاني: حب المحال[٤] والمغالية، وأن يقال: ردَّ، وكتب ردّاً. وإنما رجّحت الأول تحسيناً للظن بأخي المسلم، لأن الثاني حرام والأول لا إثم فيه، لأنه معذور، ولا يَخلُق

(١) «حلية الأولياء» (٤:٢٨).

(٢) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه إلا أنه قال: تبسم النبي ﷺ ثم قال ... فذكره. ورجال أحمد ثقات، وأحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح، غير أبي بحر ثعلبة، وهو ثقة. «مجمع الزوائد» (القدر، ٧:٤٠٩). ورواه ابن حبان في «صحيحه» (موارد الظمآن، القدر، رقم ١٨٤) راجع أيضاً حاشية رقم /١/ صفحة /٤٧٦/.

(٣) «تفسير الطبري» (٢:٣٤٦).

(٤) المحال ككتاب الكيد والجدال. «القاموس المحيط».

الفهم إلا الله، ثم قال هذا الواقف: لا بُعدَ أن يكون أصل مقالة الغزالي قولَ أهل الحلول والاتحاد والفلاسفة ليس في الإمكان أبدع من الإنسان، لأنه مخلوق على صورة الرحمن. وقال أيضاً: ليس الكلام في أفراد ما يوجد من هذا العالم، بل الكلام إنما هو في إمكان عالم آخر غير هذا العالم بجميع جزئياته.

وأقول **أولاً**: قد صرح الغزالي في عدة مواضع من الإحياء بتكفير من قال بالحلول والاتحاد، وقد سقت عباراته في جزء ألفته في ذلك، فلا يظن به مع هذا لأنه بين قوله على قولهم، وما كان الغزالي من الموصوفين بالبلادة حتى غبش عليه هذا، ولا تفطن له، مع رسوخ قدمه في علوم الكلام وسائر العلوم، وهَبْهُ مشى عليه مرة ما كان ينتبه له بعد ذلك حتى يكون في مواضع من كتبه، وهبْه ما تنبّه له حينئذ ما كان يتنبه له أهل عصره الذين سألوا عنه واستشكلوه من جهة أخرى أو تنبه له هو لما سألوه، وهبه ما تنبه، ما كان يتنبه له أئمة الكلام والحديث والفقه، كالإمام الرازي، والرافعي، وابن الصلاح، وابن عبدالسلام، والنووي، والبيضاوي، وابن دقيق العيد، وابن الرفعة، والأصبهاني، والسبكي، والتونوي[1]، وغيرهم مما لا يحصى وكانوا ينبهون عليه كما نبهوا على ما وقع له من الأحاديث الباطلة من الإحياء. بل التنبيه على هذا الموضوع كان أولى وأهم.

وثانياً: إن الغزالي إنما ساق كلامه مساقاً غير مساق كلام أولئك.

وثالثاً: إن قول الغزالي مأخوذ من قول الفقهاء، إن الأحكام تبع المصالح الراجحة، فَفِعْلُ سائر الأفعال كذلك، واقعةٌ بحسب المصالح الراجحة من غير تعرض لنفي القدرة أصلاً، وعلى ذلك بنينا التقرير من أول الكُرّاسة إلى آخرها، فكل فعل أوجده الله دلّ إيجاده على أن المصلحة في إيجاده أرجح منها في عدم إيجاده، مع صلاحية القدرة قطعاً لعدم إيجاده، وكل ما لم يوجده دل عدم إيجاده له على أن المصلحة في عدم إيجاده أرجح منها في إيجاده، مع قدرته قطعاً على إيجاده، هذا يعني كلام الغزالي، ومقصوده بذلك حث العبد على الرضا بكل قضاء الله، فساقه على ما هو كلامه حتى لا ييأس على شر أصابه ولا خير فاته. ومن ذا الذي يقول في شر أصابه إن القدرة لا تصلح لعدم إيجاده، أو في خير فاته إنها لا تصلح لإيجاده، هذا لا يقوله عاقل، لا مسلم ولا كافر، فإن أهل الملل اتفقوا على إثبات القدرة فيه.

ورابعها: لو تأمل المعترض قولي في أوائل الكراسة إن النفي في كلام الغزالي ليس منصبّاً

---

(١) الصواب: التونـي، إلى تـون بلـد عنـد فـارس، وتونـه قريـة قـرب دمياط. «لب اللباب» للسيوطي.

على إمكان الوجود، بل على كونه أبدع، لم يقل شيئاً مما قاله، فإن المنفي حينئذ وصف من صفات الممكن لا القدرة ألبته، ألا ترى أنك لو قلت هذا الفعل ليس بحسن، هل يكون في نفيك الحسن عنه قدح في القدرة، أو تعرض لها بوجه ما؟ فكذلك إذا قلت، هل الممكن ليس بأبدع؟ وها أنتم قد ادعيتم في الوجود أنه ليس بأبدع ما يمكن وجوده، فكذلك ادعى الغزالي فيما يمكن وجوده ولم يوجد، إنه ليس أبدع مما وجد، فإن كان في قول الغزالي تعرض للقدرة فهو في قولكم أيضاً، ويلزمكم ما يلزمه، وليس الأمر كذلك، لا في قولكم ولا في قوله ما ينفي القدرة أصلاً، وإنما النفي منصب على وصف من صفات الموجود أو الممكن لا تعرض للقدرة فيه أصلاً.

وخامساً: به صرح الغزالي بإثبات القدرة حيث قال في الدليل: ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، فكيف يقال عليه مع ذلك إنه نفى الدخول تحت القدرة.

وسادساً: إن الكلام الذي سُقناه عن الأئمة فيه توضيح لما قررناه، أن الأفعال وقعت بحسب المصلحة الراجحة وليس فيه ولا فيما قررناه أن الإبداع لا يدخل تحت القدرة، هذا لا يخطر ببال أحد في هذا العالم، بل الكلام إنما هو في إمكان عالم آخر غير هذا العالم ممنوع، بل الكلام إنما هو في الأول كما هو مساق كلام الغزالين نعم، كلام الفلاسفة في الثاني وليس هو مراد الغزالي، ومن هنا جاء الغلط عليه، فظن المعترض لاشتباه المقالتين إنهما تواردا على محل واحد، وليس كذلك لا محلاً ولا تصويراً ولا حكماً.

وأخبرني الحافظ تقي الدين بن فهد إجازة بمكة عن الشيخ عبدالله أن الإمام عفيف الدين بن عبدالله بن سعد قال: أخبرني والدي قال: أخبرني الشيخ شهاب الدين بن الميلق الشاذلي قال: اخبرني الشيخ ياقوت الشاذلي قال: أخبرني الشيخ أبو العباس المرسي الشاذلي قال: أخبرني الشيخ أبو الحسن الشاذلي عن الشيخ أبي الحسن بن حرزهم أنه لما وقف على كتاب الإحياء نظر فيه وتأمله ثم قال: هذا بدعة يُخالف السُّنّة، وكان مطاعاً في بلاد المغرب، فأمر بإحضار كل ما فيها من نُسخ الإحياء، وطلب من السلطان أن يُلزم الناس ذلك، فأحضر الناس ما عندهم من ذلك، واجتمع الفقهاء ونظروا فيه، ثم أجمعوا على إحراقه، فرأى أبو الحسن المذكور في المنام النبي ﷺ وأبا بكر وعمر والإمام الغزالي وبيده كتاب الإحياء، فقال: يا رسول الله هذا خصمي، ثم ناول النبي ﷺ كتاب الإحياء، وقال: يا رسول الله انظرْ فيه، فإن كان الأمر كما زعم أنه بدعة مخالف لسنتك تُبت إلى الله، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لي من بركتك واتباع سنتك، فأنصفني من خصمي،

ثم نـاول النبي ﷺ كتـاب الإحيـاء فنظـر فيـه ﷺ ورقـة ورقـة، مـن أولـه إلى آخـره، ثـم قـال: وا لله إن هـذا لشيء حسـن، ثـم ناولـه الصديـق رضـي ا لله عنـه فنظـر فيـه فاستجاده، ثـم قـال: نعـم والـذي بعثـك بـالحق إنـه لشيء حسـن، ثـم ناولـه الفـاروق عمـر، فنظـر فيـه وأثنـى عليـه كمـا قال أبـو بكـر، فـأمر ﷺ بتجريـد أبـي علـي بـن حرزهـم وضربـه حـدَّ المُفـتري، فجـردوه وضربـوه، (فلمـا ضـرب خمسـة أسـواط تشـفع فيـه الصديـق رضـي ا لله عنـه وقـال: يـا رسـول ا لله، لعلـه ظـنّ خـلاف سـنتك فأخطـأ في ظنـه، فرضـي الإمـام الغـزالي وقبـل شـفاعة الصديـق)[1] فاسـتيقظ مـن منامـه وأثـر السـياط في ظهـره، وأعلـم أصحابـه بما جـرى لـه، ومكـث قريبـاً مـن شـهر وجعـاً مـن ذلـك الضـرب (وهـو يتضـرع إلى ا لله تعـالى، ويتشـفع برسـول ا لله ﷺ إلى أن رأى النبي ﷺ دخـل عليـه، ومسـح بيـده الكريمـة علـى ظهـره، فعـوفي وشـفي بـإذن ا لله تعـالى)[2] ثـم نظـر بعـد ذلـك في كتـاب الإحيـاء ففهمـه فهمـاً خلافـاً لفهمـه الأول، ورآه موافقـاً للكتـاب والسنة، ولقد مات يـوم مـات واثـر السـياط ظـاهر علـى جسـمه.

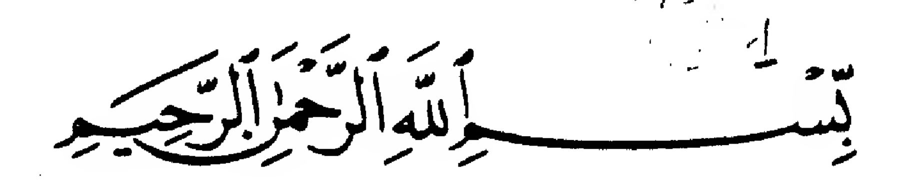
وقـد أورد السـبكي هـذه الحكايـة في «الطبقـات» مختصـرة، وذكـر فيهـا عـن ابـن عبـدا لله محمـد بـن يحيـى بـن عبدالمنعـم الصـوري قـال: رأيـت بالإسـكندرية فيمـا يـرى النـائم كـأن الشـمس طلعـت مـن مغربهـا، فعبر ذلـك بعـض المعبرين ببدعـة تحدث فيهـم، فوصـل الخبر بعـد أيام بـإحراق كتـب الغـزالي بالمرسـة.

تمّ الكتـاب بحمـد ا لله وعونـه وحسـن توفيقـه والحمـد لله أولاً وأخـراً.

---

(١) مـا بـين القوسـين زيـادة مـن كتـاب «فضـائل الإحيـاء» للشـيخ عبدالقـادر العيـدروس.

(٢) مـا بـين القوسـين زيـادة مـن كتـاب «فضـائل الإحيـاء» للشـيخ عبدالقـادر العيـدروس.



الطبعة الأولى

غرة المحرّم ١٤١٩هـ - آذار ١٩٩٨م

طبعة جديدة تتميز بتخريج الأحاديث، وضبط المتن، وزيادة رسالة «تشييد الأركان» للحافظ السيوطي التي تُطبع لأول مرة، وفهرس أطراف الأحاديث.

أشرف على التحقيق والتصحيح

هيئة التحقيق

بدار الوعي العربي - مكتبة ابن عبد البر

لإحياء التراث العلمي العربي، ولله الحمد والفَضلُ والمِنَّة

توزيع

دار الكتاب الإسلامي

حلب - أقيول

جانب جامع أسامة بن زيد

هـ: ٦٣٩١٤٣